

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(67-73): تفسير تتمة الآية 151 ، بر
الوالدين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-06-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والستين من دروس سورة الأنعام ، ومع الآية التي بدأنا بها في الدرس الماضي ، وهي الآية الواحدة والخمسون بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

سورة الأنعام

تذكير :

أيها الإخوة الكرام ، في الدرس الماضي بينت لكم كلمة :
﴿تَعَالَوْا﴾ وبينت أن المحرمات على نوعين ، محرمات في المطاعم ، وهي تقصد الجسم ، ومحرمات في الاعتقادات ، وفي المعاملات ، وهي تقصد النفس ، وهذه الآية متعلقة بالمحرمات في الاعتقادات وفي العلاقات .

أيها الإخوة ، وكان الحديث أيضاً عن الشرك بالله ، هذا في الدرس الماضي ، ومنتقل اليوم إلى موضوع: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾.

مقدمة في بر الوالدين :

أيها الإخوة ، بادئ ذي بدء كان من الممكن أن نأتي جميعاً إلى الدنيا دفعة واحدة ، وأن نغادرها دفعة واحدة ، لأن كل ما سوى الله ممكن ، ممكن أن نكون ، وممكن ألا نكون ، وإذا كنا يمكن أن نكون على ما نحن عليه ، ويمكن أن نكون على خلاف ما نحن عليه ، يعني يمكن أن لا

يكون هناك آباء وأمّهات إطلاقاً ، البشر جميعاً يُخلقون دفعة واحدة على وجه الأرض ، معنى ذلك أن الدرس ألغي ، و ألغي معنى قوله تعالى :

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ولكن كما يقال : حكمة الله بليغة ، أراد الله أن نكون من أب وأم ، هذا الدرس علاقتك بالأب والأم ، أولاً بشكل مجمل ينبغي أن تكون العلاقة بينك وبين أبيك ، وبينك وبين أمك علاقة إحسان ، لا علاقة ندية ، أنت في التعامل التجاري علاقة ندية ، وقد تقيم علاقة مع أخيك علاقة ندية ، وهناك العلاقات لا تعد ولا تحصى ، إلا أن العلاقة بينك وبين أبيك وأمك ينبغي أن تكون علاقة إحسان ، إحسان منك إليهم ، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يحبك ، ومحبة الله عزوجل سبقت محبتك له ، لماذا ؟ لقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54)

سورة المائدة

لأنه أحبنا خلقنا ، ولأنه خلقنا أحبنا ، هذا الحب جُيِّد ، وترجم بمحبة الآباء والأمهات لأولادهم ، ولا يزال قلب الأب وقلب الأم آية دالة على عظمة الله ، تتمنى أن تمرض لتصح ، تتمنى أن تجوع هي لتأكل ، تتمنى أن تخاف هي لتطمئن ، تتمنى أن تقدم لك كل شيء ، ومن دون أن تطمع منك بشيء .

حقائق مهمة في نظام الأبوة :

الحقيقة الأولى : الأبوة آية من آيات الله :

الحقيقة الأولى: كيف أن الكون آية من آية الله الدالة على عظمته ، كيف أن الشمس والقمر آيتان ، والليل والنهار آيتان ، قلب الأم ، وقلب الأب آية ، وفي الأعم الأغلب أن الإنسان لا يعرف قيمة الأب إلا إذا أصبح أباً ، ولا تعرف المرأة قيمة الأم إلا إذا أصبحت أمّاً ، كيف أن المحبة والحرص والعطف والحنان من أجل أن يسعد ابنها .
أيها الإخوة ، إن صح أن الكون يدل عليه يصح أيضاً أن قلب الأم ، وقلب الأب يدل على الله، هذا الملمح في قوله تعالى :

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا النَّبَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا النَّبَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ (3)

سورة البلد

نظام الأبوة يدل على الله ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴾ يعني الأب حينما يكون ابنه كما يتمنى يشعر بسعادة لا توصف ، وهذا معنى قوله تعالى :

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

فقلب الأب وقلب الأم إلا حالات قليلة جداً وشاذة ، وهي في آخر الزمان تتفاقم ، هناك آباء ليسوا كما ينبغي ، لكن في الأعم الأغلب أي أب في كل القارات ، وفي كل العصور الأب أب ، والابن ابن .

إذاً : أول نقطة أن الله سبحانه وتعالى حينما خلقنا أحبنا ، أو أحبنا فخلقنا والدليل : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ محبة الله تجسدت ، أو ظهرت ، أو تُرجمت في محبة الأم لابنها ، أو محبة الأب لابنه . أيها الإخوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

أَنْ أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)

إذا ألقيت عليك محبة مني ، هذا الذي ألقيت محبتك في قلبه يقدم حياته من أجلك .
إذاً : إن رأيت أمك وأباك يرحمانك ، ويعطفان عليك فاعلم علم اليقين أن هذه رحمة الله .

الحقيقة الثانية : محبة الآباء للأبناء طبع :

النقطة الدقيقة الثانية : أنك لن تجد في القرآن كله آية إلا آية واحدة متعلقة بالمواريث ، لكن بشكل عام لن تجد في القرآن الكريم كله آية توصي الآباء بأبنائهم ، لماذا ؟ قال لأن محبة الآباء لأبنائهم ، ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل خلقهم ، وهل سمعت في الأرض أن رئيس وزراء يصدر مرسوماً تشريعياً يحض المواطنين على تناول طعام الإفطار؟ هذا كلام لا معنى له إطلاقاً ، لأن الحاجة إلى الطعام طبع في الإنسان ، لا تحتاج لا إلى قانون ، ولا إلى مرسوم ، ولا إلى أمر ، ولا إلى التفتيش ، كل واحد منا يستيقظ ، ويقول : أين الطعام ؟ ولأن محبة الآباء ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل وجودهم ، الدليل : اذهب إلى مستشفى الأطفال ، المتفتحة تبكي ، والجاهلة تبكي ، والبدوية تبكي ، والمتقلبة من منهج الله تبكي ، والمليمة تبكي ، والمحبة تبكي ، إن كان ابنها مريضاً ، كل أمهات الأرض عدا قلة قليلة جداً شاذة لا علاقة لها بهذا الحكم .
إذاً : محبة الآباء والأمهات إلى أولادهم طبع في أصل تركيبهم ، لكن بر الأبناء لأبائهم تكليف ، هكذا شاءت حكمة الله تكليف ، لما يتزوج الابن مصلحته مع زوجته وأولاده ، فإذا بر أباه فمن باب التكليف ، مصلحته ليست مع أمه ، مصلحته مع زوجته الشابة ، أمه في سن الثمانين ، أمه عبء عليه بالميزان المادي ، لذلك في العالم الغربي الآباء والأمهات في مأوى العجزة ، لكن في العالم الإسلامي لأن بر الأبناء بأبائهم وأمهاتهم تكليف ديني تجد أن المتقدم في السن في بلاد المسلمين في حالة تتميز بها عن كل أنحاء العالم ، بل إنه في البلاد الإسلامية عار وأي عار أن يدفع الابن أباه إلى مأوى العجزة ، الأب في هذه السن لا يتمنى أن يأكل ، ولا أن يشرب ، يتمنى أن يكون بين أولاده ، يتمنى أن يراهم ، عنده حاجة ، لذلك حينما قال الله عزوجل :

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ يعني إحسانك لأبيك لا ينبغي أن يكون عن طريق سائق ، أو عن طريق الموظف، أو عن طريق ابنك ، ينبغي أن يكون عن طريقك شخصياً مباشرة ، يجب أن تذهب أنت إليه لتقدم له الحاجة التي طلبها منك ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ يجب أن يكون إحسانك لهم لصيقاً ، لا عن طرق سائق أو عن طريق موظف في المكتب ، خذ أبي نزهة ، فأنا مشغول ، خذ أمي نزهة ، أنا مشغول ، لا ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ مشاعر الأب هي مشاعر الحب ، مشاعر العطف سعادته أن يكون عند ابنه ، لا أن يكون في مأوى العجزة ، يعني لو أن الخدمة في مأوى العجزة بالتعبير الفندقية خمس نجوم ، وخدمة الابن لأبيه الفقير نجمة واحدة ، أو نجمة مطموسة لتمنى أن يكون مع أولاده ، ومع أحفاده ، من أن يكون في مأوى العجزة .

لذلك امرأة غنية جداً لها أولاد شباب ، تخاصموا على من تكون عنده ، وأصغوا إلى صوت زوجاتهم، وكل زوجة تأفت ، لذلك وضعوها في مأوى العجزة من فئة الخمس نجوم ، فلما علمت إلى أين آلت أتت بكتاب العدل ، وكتبت كل ما تملك من أموال منقولة وغير منقولة بمئات الملايين إلى الجمعيات الخيرية عقاباً لهم على موقفهم .

فلذلك أيها الإخوة ، محبة الآباء والأمهات لأبنائهم طبع ، وأي أب ، وأية أم على اختلاف المشارب والاتجاهات ، والالتزام ، وعدم الالتزام ، والثقافة وعدم الثقافة واحدة ، لأنها طبع ، كيف أن كل إنسان يشعر بالجوع ويأكل ، أي إنسان ، أخي هذا مثقف لا يأكل ، لا ، يأكل هذا جاهل يأكل كثيراً ، لا ، كل إنسان يأكل ، مثقف أو غير مثقف ، ملتزم أو غير ملتزم ، الله عزوجل أودع في إنسان حاجة إلى الطعام ، لذلك كذلك أودع في قلب الآباء والأمهات محبة لأولادهم ، ولو فكرت الآن تجد رجلاً مصروفه بضعة آلاف هو وزوجته ، لكن كل سعيه يدير معملاً ، يدير مؤسسة ، يتحمل المشاق ، الظروف الصعبة ، البيع الضعيف ، الضرائب الكثيرة ، صعوبة التخليص ، كل هذه المتاعب من أجل أولاده ، هو عندهم يخدمهم دون أن يشعروا .

لذلك أيها الإخوة ، محبة الآباء للأبناء طبع مركب في أصل وجودهم ، بينما خدمة الأبناء لأبائهم وأمهاتهم تكليف ، مصلحته مع زوجته ، لذلك من علامات قيام الساعة الإنسان يعق أباه ويبر صديقه ، يعق أمه ويسخ أمام زوجته ، هذه حالة واضحة ، أكثر الأمهات تشتكي أحياناً من جفاء ابنها ، مصلحة ابنها مع زوجته لا مع أمه .

لذلك الملخص أن محبة الآباء لأبنائهم ، ومحبة الأمهات لأبنائهم طبع مركب في أصل وجودهم ، بينما بر الأبناء لأبائهم وأمهاتهم تكليف .

لا بد من ملاحظة : يعني تكاد تكون رحمة الأب بابنه أجرها قليل ، لأنها طبع ، ليست كسبية، أما إذا اهتم بأخلاقه وبدينه هذا هو العمل الصالح ، أما أن يهتم بطعامه ، وشرابه ، ومدرسته ، وتحصيله، أي أب في الدنيا يهتم بذلك ، ويكاد يكون الأجر قليل جداً ، لأنه شيء مركب في أصل تكوينه ، وأنت تشعر أنك عملت عملاً عظيماً ، فهل إذا صليت تبكي بكاء شديداً لأنك تناولت طعام

الغذاء؟! مستحيل ! لأن تناول الطعام طبع ، أما حينما تؤثر أبالك على شيء أنت في أمس الحاجة إليه ، وتقدمه له تبكي في الصلاة ، لأن هذا تكليف ، وأنت قمت بالتكليف ، وأديت الأمانة .

الحقيقة الثالثة : نظام الأبوة طريق إلى معرفة الله :

أيها الإخوة ، إذاً : أراد الله أن يكون وجودنا في الدنيا عن طريق آبائنا وأمهاتنا ، وهناك نقطة دقيقة جداً : أنت من نظام الأبوة تعرف الله ، ممكن مخلوق يتمنى سعادتك ، يتمنى سلامتك يتمنى أن تكون صحيحاً ، يتمنى أن تكون غنياً ، يتمنى أن تكون متفاهماً مع زوجتك ، يتمنى أن يكون لك أولاد أبرار ، هذا حال الأب والأم ، إن دخلت البنت على أبيها ضاحكة فكأنه في جنة ، وإن دخلت البنت على أبيها باكية من زوجها فكأنه في جحيم ، هذا شعور الأب والأم كذلك لا تقرّ عين الأب وعين الأم إلا إذا كان الابن والبنت سعداء ، ولا يريد الأب من أبنائه شيئاً ، أحياناً يكون الأب مكثفياً ، وضعه المادي جيد ، ليس بحاجة إلى أولاده ، لكن عنده حاجة إلى سلامتهم وسعادتهم .

الحقيقة الرابعة : علاقتك الابن مع الوالدين إحسان محض :

شيء آخر ، نحن عندنا في اللغة حرف عطف ، حرف العطف يقضي المشاركة ، يعن ليس من المقبول في اللغة أن تقول :

اشتريت أرضاً مساحتها ألف دنم وملعقة ، لا تناسب بينهما ، تقول : اشتريت أرضاً وبيتاً ، أرضاً ودكاناً ، أرضاً ومزرعة ، بيتاً ومركبة ، لا بد في العطف من التناسب ، الآن فإذا قال الله عزوجل :

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)

سورة الإسراء

إن أعلى عمل تقوم به أن تعبد الله ، بل إن سر وجودك في الأرض أن تعبد الله ، بل إن علة وجودك في الأرض أن تعبد الله .

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

سورة الذاريات

فإذا بالإحسان إلى الوالدين يرتفع إلى مستوى عبادة الله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إذاً علاقتك مع أبيك وأمك ينبغي أن تكون إحساناً محضاً ، وكل ابن يشكو لي أباه ، لي كلمة أرددها من ثلاثين عاماً : أَدِّ الذي عليك ، واطلب من الله الذي لك ، لا تربط برك بأبيك بموقفه منك .

الحقيقة الخامسة : بطولة الأب في محبة أبنائه له :

لكن أقول لكم حقيقة لعلها من أدق حقائق هذا اللقاء وهذا الدرس : كل أب محترم في بيئتنا ، وفي ثقافتنا ، وفي ثقافة المؤمنين ، الأب محترم ، محسن أو مسيء ، منصف أو ظالم ، الأب محترم ، كل أب محترم ، لكن الأب الذي يحبه الله هو الأب المحبوب ، فرق كبير بين أن يحترمك ابنك ، وبين أن يحبك ، إن أحبك فأنت محسن إليه .

رحم الله والدا أعان ولده على بره

أخرجه أبو الشيخ <ابن حبان> في الثواب عن علي وهو ضعيف

بطولتك كأب لا أن يقدم لك ابنك آيات التجليل والاحترام ، والخضوع ، ويقبل يدك صباحاً ومساءً ، يا أبي ارض عني، بطولتك كأب أن يذوب قلب ابنك محبة لك ، وأن يتمنى بقاءك ، أن يتمنى حياتك ، لا أن يستعجل موتك ، لا إن إذا جاء الطبيب ، وقال له : قضية عرضية يتألم أشد الألم ، يريد لها قاضية ، لذلك الأب البخيل يكره الأبناء بقاءه ، ويتمنون موته ، وكذا الأب القاسي ، علامتك أبوتك أنك إذا دخلت إلى البيت كان البيت عيداً ، وإذا خرجت من البيت كان مأساة ، أما الأب الظالم إذا خرج من البيت صار البيت عيداً ، وإذا دخل إلى البيت ارتبك البيت ، وكلٌّ آوى إلى غرفته ، وابتعد عن أبيه، فبطولتك لا أن تُحترم ، كل أب محترم ، بطولتك أن تُحب .

أعظم عمل أن يكون ابنك استمراراً لك ، لذلك قال الله تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ؕ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ (21)

سورة الطور

كل أعمال ذريتك في صحيفتك يوم القيامة ، لذلك كل واحد منكم متاح له أن يصل إلى الجنة عن طريق تربية أولاده ، كل واحد منكم بإمكانه أن يصل إلى الجنة فقط عن طريق تربية أولاده .

الحقيقة السادسة : على الأبناء الإحسان إلى الوالدين لا عبادتهما :

لكن حينما قال الله عزوجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ هناك فرق كبير بين العبادة وبين الإحسان ، والعبادة طاعة .

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرک عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري

وأحد أكبر الصحابة الكرام سيدنا سعد ابن أبي وقاص ، تقول له أمه : يا سعد ، إما أن تكفر بمحمد ، وإما أن أدع الطعام حتى أموت ، قال : يا أمي ، لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد ، فكلي إن شئت أو لا تأكلي ، فأكلت بعد ذلك ، ليس هناك مساومات في الدين ، (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) لكن لو أمرك بمعصية فلا ينبغي أن تنفجر عليه ، قال :

وَأَنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

حتى لو أمرك بمعصية ، حتى لو أمرك بالشرك ينبغي أن تكون متلطفاً معه برفضك ، يعني أنت مكلف أن تبر أمك وأباك ، مؤمنين ، غير مؤمنين ، منصفين ، غير منصفين ، قاسيين رحيمين ، أد الذي عليك واطلب من الله الذي لك .

أيها الإخوة ، إذاً العبادة شيء والإحسان شيء آخر ، أمرك أن تطلق زوجتك وزوجتك مؤمنة ، محببة ، صادقة ، تحبك ، وتؤدي واجبها تجاهك ، أريد أن أطلقها لا أقدر لأن أبي أمرني (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وكل واحد يطلب مني هذا الطلب أن ينفذ رغبة والده بتطبيق زوجته يحتج أن سيدنا عمر أمر ابنه أن يطلق زوجته ، فطلقها ، أقول له بجوابي على هذا السؤال : إن كان أبوك عمر فطلقها ، أبوك ليس عمر ، لا يمكن أن يأمر عمر ابنه بتطبيق زوجته إلا لحكمة بالغية بالغة .

فذلك أوامر الأمهات أحياناً والآباء في القسوة على الزوجات كثيرة جداً فإن كانت زوجتك صالحة فعاملها بأرقى معاملة ولو أن الأب أو الأم غضبت عليك ، لا غضب لها في هذا المعنى ، لكن ليس من الحكمة أن تبالغ في مدح زوجتك أمام أمك أو أمام أبيك لئلا تُتهم أنك مستسلم لها ، ليس من الحكمة ، كيفها يا بني ؟ والله ماشي الحال نصيب هذا ، هذه منتهى الحكمة ، أما أن تبالغ في مدحها ليلاً نهاراً ، يظن أنك همت بها ، وليس عيباً أن تهيم بزواجك ولكن قلب الأم أحياناً لا تحتمل ، أنت لها في الأصل ، فإذا بامرأة تأخذ قلبك منها .

إذاً العبادة شيء ، والإحسان شيء آخر ، من تكريم الأب في القرآن الكريم أنه لا يجوز أن يُقتل الابن أمام أبيه ، ولو كان مجرماً ، الدليل أن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما أغرق الله ابنه قال :

قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۖ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

لأن قلب الأب لا يتحمل ، لا قلب الأب ، ولا قلب الأم .
لذلك مرة بجنين دخل جندي إسرائيلي إلى بيت ليقتل الابن الشاب، ولما علم الأب أنه لا بد من قتله رجا الجندي أن يقتله خارج البيت وأبى الجندي إلا أن يقتله أمام أبيه وهو يتناول طعام الإفطار، وأطلق عليه رصاصة أوداه قتيلاً، أمام أمه وأبيه وأخته، أخته ملتزمة ومحامية، ماذا فعلت؟ في اليوم التالي ارتدت ثياباً يصعب أن توصف، فاضحة ثياب ضيقة وشعر وقصير وطويل وضيق وعطور ومكياج، وأمسكت بمحفظة وانتقلت من جنين إلى تل أبيب إلى حيفا ودخلت إلى مطعم وفجرت من في المطعم وكان في المطعم قائد البحرية وأولاده وأحفاده لأن الأخت لم تحتمل أن يقتل أخوها أمامها، هناك قواعد لذلك ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أيها الإخوة ، ليس من البر أن يقول لك أبوك : طلق زوجتك ، أو لو أمرك بمعصية ، البر شيء ، والعبادة شيء آخر ، العبادة لله ، والبر للوالدين ، البر أن تطعم أباك وأمك ، أن تهين لهما الظروف، في الشتاء يحتاجون إلى معطف ، إلى تدفئة ، إلى طعام ، أما أن يقلبا حياتك جحيماً غير مقبول منهما ذلك ، أن يقلبا حياتك جحيماً من أجل نزوة عندهما فهذا شيء غير مقبول أبداً ، لأن أكثر الأبناء والله أيها الإخوة ، وأنا لا أنطلق من فراغ ، أنطلق من قصص واقعية ، هو متفاهم مع زوجته 100 % ، إلا أن تدخل الأب والأم أحال البيت جحيماً لا يطاق ، إذاً : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) لكن الرد ينبغي أن يكون لطيفاً ومهذباً ، وفيه تسديد وتقريب ، قال الله عزوجل :

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)

سورة الإسراء

الحقيقة السابعة : الإحسان إلى الوالدين عند حاجتهما لذلك في الكبر :

يعني من السهل جداً أن تبر أباك الشاب ، القوي ، الغني ، ليس بحاجة إليك ، بحاجة إلى مودتك ، إلى سلام ، إلى زيارة فقط ، لكن لا سمح الله ولا قدر أب مقعد في البيت ، وهو عندك في البيت ، وله طلبات كثيرة ، والإنسان مع تقدمه في السن قد يصاب بحالات من التخلف الفكري الخرف ، لكن أنا أسأل الله لي ولكم أننا إذا كنا في طاعة الله ألا نخرف ، لأنه من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت ، لذلك البطولة لا أن تبر أباك وهو صحيح ، قوي شاب ، غني ، البطولة أن تبر أباك وهو عندك في البيت ، وأسأل أيّ أب الآن : كم ولدًا عندك ؟ يقول لك : عندي خمسة أولاد ، لكن أسأله وهو في الخامسة والثمانين أين هو ساكن ؟ عند ابني ، كان أولاده عنده فأصبح عندهم ﴿ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ﴾ كبير في السن ، طلباته صعبة ، أدويته كثيرة ، حاجاته غير معقولة ، له أسئلة كثيرة ، تعليقات ، والذي نشأ عليه في الثلاثينات يجب أن يلتزم به من هم في التسعينات ، هذا لا يصح ، علموا أولادكم ، وأدبواهم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم ، وكثير من الآباء مع تقدمهم في السن الذي نشأ عليه في العشرينات يريد أن يلزم ابنه أن يطبقه بعد ثمانين سنة ، هذا شيء غير معقول ، فكلما وجدت أباً مرناً أعطى أولاده حرية في شؤون لا علاقة لها بالدين إطلاقاً فهذا جيد ، الآن أكثر المشكلات بين الأم وبين زوجة الابن أنه يجب على الزوجة أن تنفذ تعليمات الأم التي نشأت عليها قبل عشرين أو خمسين عاماً ، هناك معطيات جديدة ، وأساليب بالحياة جديدة ، وهناك أكالات معينة ، وهناك ترتيب معين ، لذلك كل ما كان الأب والأم ظلهم خفيفاً على أولادهما ازدادت محبة الأبناء للآباء . إذاً :

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ لذلك أحياناً يكون الأب عند أحد أولاده ، الأبناء الآخرون يتمتعون بحرية أولاً ، وبرضا الأب ، لأنه ليس بينهما احتكاك أبداً ، أما الابن الذي عنده أبوه فهو في مشكلات كثيرة معه ، في طعامه ، وشرابه ، وضيوفه ، وغرفته ، لذلك البطولة أن تحتمل ، وأنا أؤكد لكم أن الابن البار بأبيه يمكن أن ينال عند الله مكانة كبيرة جداً .

أنا أذكر أن أخاً ظهر في إصبع رجل أبيه سواد ، فعرضوه على الطبيب فقال : لا بد من قطع إصبعه فوراً ، له خمسة أولاد ، الأربعة أولاد قالوا : قضاء وقدر ، ماذا نفعل ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل ، إلا أن أحد أولاده لم يرض أن تقطع إصبع أبيه وتألّم ، ورجا الطبيب حتى علا صوته ، الطبيب احترمه ، قال له : والله هناك حل ، لكن هذا نجاحه بالمئة عشرة ، قال له : ما الحل ؟ قال له : لستة أشهر صباحاً ، وظهراً ، ومساءً يحتاج إلى أدوية وتطهير بالماء ، ومواد معينة ، قال له : أنا أقوم بذلك ، والابن موظف ، فكان يستيقظ باكراً جداً ، ويذهب إلى أبيه الساعة السابعة ، ويؤدي الواجب بتنظيف إصبع رجل أبيه ، والظهر يأتي ، والمساء يأتي ، وبعد ستة أشهر شفي الأب ، ولم يحتاج إلى قطع إصبعه ، والابن والله شيء لا يصدق ، مع أن دخله محدود ، ووضعه صعب فتح الله عليه ، شيء لا يصدق ، وأنا لا أعرف واحداً بار بوالديه إلا الله أغناه ، أغناه وأكرمه .

والذي عتق أباه عقه أولاده ، والذي بر أباه بره أولاده ، والقضية دين ، فكما تعامل أبناك في الأعم الأغلب يعاملك أبناؤك .

إِذَا : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ ما معنى أف ؟ اسم فعل مضارع ، أتضجر ، إذا قال لك : بس ، اسم فعل أمر اكتف ، حي على الصلاة اسم فعل أمر أقبل ، عندنا في اللغة أسماء أفعال ، لا هو اسم ، ولا هو فعل ، الصيغة اسم ، المعنى فعل ، عندنا اسم فعل ماضي ، وعندنا اسم فعل مضارع ، وعندنا اسم فعل أمر ، فحي على الصلاة أقبل ، اسم فعل أمر ، أف ، اسم فعل مضارع ، أتضجر ، يعني زفير مسموع ، قال لو أن في السلوك سلوكاً أقل من أف لقاله الله ، لا أقل منه ، أف ، الزفير مسموع ، يعني أنت متضجر ، بعض العلماء حملوا على أف أكثر من ثلاثين حالة .

من مشى قبل أبيه ، لا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تستسب له ، لا تسبب أن يُسبب الأب من أجلك .

فَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ ، وَلَا تَسْتَسِبَّ لَهُ ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ

[رواه ابن السني ، عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إِذَا : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ وأنا أقول دائماً للأبناء الذين امتحنهم الله بمرض آبائهم : الأب فاكهة موليّة ، فإذا قمت بواجبك خير قيام متعك الله في حياتك .

أبها الإخوة ، الآية الكريمة :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أيضاً العطف يقتضي التشابه ، يعني كيف أن الشرك ، النهي عن الشرك والأمر بالإحسان للوالدين ، لكن دائماً أحب أن أفرق ، أن الإحسان شيء والطاعة شيء آخر ، وإذا رفضت أمراً لأبيك فينبغي أن ترفضه بلطف ، وبتواضع ، وبابتسامة ، وبرجاء ،

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ يعني كل عملك مع الأب إحسان ، ومع الأم .

والفرق بين إكرامك لأبيك أو أمك ، وبين إكرام الأب لابنه فرق كبير ، أنت تكرمهما ، وتتمنى في حال المرض العضال أن يخفف الله عنهما ، أليس كذلك ؟ ولو في قلبك تكرمهما ، لكن في أعماقك تتمنى أن يخفف الله عنهما ، وهناك أبناء غير مهذبين يسمعون هذه الكلمة لأبائهم ، لكن أباك وأمك حينما كانا يكرمانك يتمنيان حياتك ، وفرق كبير بين هذا وذاك .

وقد ورد أن صحابياً جليلاً كان يجلس أمام النبي عليه الصلاة والسلام وعنده ابن جميل الصورة، كان يضعه على كتفيه ، ابنه على كتفيه أمام النبي الكريم ، النبي إنسان عظيم ، أعجب بهذه المحبة ، فسأله مداعباً : أتعبه ؟ الصحابي الكريم بأعلى درجات الأدب قال : يا رسول الله ، أحبك الله كما أحبه ، أحبه حباً شديداً ، بعد يومين غاب الصحابي عن مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتفقده ، وسأل عنه ، فقيل له : لقد مات ابنه ، فاستدعاه ، وعزاه ، وقال له : قال يا فلان، أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ؟ يعني أن يكبر ، وهو ظلك ، ورفيق حياتك ، ومتفوق في الدراسة ، وبار بك ، ومحسن ، وفهيم ، ونجيب ومعك دائماً إلى أن تغادر الدنيا ؟ أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك ، أو أن يسبقك إلى الجنة ؟ فأبوابها فتحها لك ؟ قال : بل الثانية ، قال : هي لك ، رأيت إلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام كيف عالج هذه الحالة ؟

كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ ، فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَهَلَكَ فَاَمْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الْحَلْقَةَ لِنُكْرِ ابْنِهِ ، فَحَزَنَ عَلَيْهِ ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا لِي لَا أَرَى فَلَانًا ؟ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بُنِيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ فَسَأَلَهُ عَنْ بُنْيَتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا فَلَانُ ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تُمْتَعَ بِهِ عَمْرُكَ ، أَوْ لَا تَأْتِيَ غَدًا إِلَى بَابِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهَا لَكَ ، قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهْوٍ أَحَبُّ إِلَيَّ ، قَالَ : فَذَاكَ لَكَ .

صحيح النسائي عن قرة بن إياس المزني

طلب وأمنية :

إِذَا : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ والذي أتمناه عليكم أن ينقلب هذا الدرس إلى سلوك ، أنت حينما تبر أمك وأباك فأنت في أعلى درجات القرب من الله ، لأنهما سبب وجودك ، فالذي كان سبب وجودك ينبغي أن يكون ولاؤك لهما .

إِذَا بر الآباء والأمهات عمل عظيم ، بل من أرقى الطاعات لله عزوجل ، والقصاص الكثيرة التي تروى عن أناس نجحوا نجاحاً باهراً في الدنيا بفضل دعاء والديهم لهم ، والأب لا يملك إلا أن يدعو لك بالتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، والقصاص مرة ثانية التي تتحدث عن بر الأبناء ، وعن توفيق الله لهم ، وعن حفظهم له لا تعد ولا تحصى .

يعني حينما يتوهم الابن أن بر أبيه بمعصية الله فهو مخطئ ، وأن الأب حينما يتوهم أن خدمة ابنه بمعصية الله مخطئ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)

والحمد لله رب العالمين